السياق ودوره في تأويل النص السرد السردي
رواية " الحركي" لمحمد بن جبار أنموذجا

فيروز بن خناثة *
Fairouz.benkhounata@ummto.dz
جامعة مولود معمري – تيزي وزو
مخبر ل م د جامعة آكلي محند أو الحاج ــ البويرة ــ الجزائر
بوجمعة شتوان
Chetouane_bou@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2024/02/08 تاريخ القبول 2024/04/08 تاريخ النشر 2024/06/22

ملخص:

نروم من خلال هذه الورقة إلى التأكيد على الدور الذي يلعبه السياق كأهم نظريات علم الدلالة ، و لسانيات النص، في توجيه المعنى داخل النص الروائي ، من خلال مقاربة تاويلية لرواية " الحركي " لمحمد بن جبار التي تعد أرضية خصبة لاستثمار معطيات السياق بمختلف مستوياته ، حيث تم التركيز فيها على الظروف الداخلية والخارجية التي أدت إلى تشكل المضمون السردي ، و لعل المنهج التأويلي من أكثر المناهج حاجة للسياق لترسيم حدوده ، و ملاحقة مسارات المعنى والعبور إلى العالم الداخلي للرواية، و كشف المعاني المضمرة داخلها .

الكلمات المفتاحية:

السياق ، التأويل ، المعنى ، المقام ، الدلالة

Abstract:

Through this paper , we aim to emphaize the role that context plays, as the most important theories of semantics and text linguistcs, in directing meaning within the fictional text ; through an interpretive approach to the

novel “AL-HARKI ” by MOHAMAD BEN JABBAR ,which is fertile ground for exploiting context data at its various levels , as it the focus was on the internal and external circumstances that led to the formation of the narrative content , and perhaps the interpretive approach is one of the most needed approaches for the context to demarcate is boundaries , pursue paths of meaning and cross into the inner world of the novel , and revealing the implicit meanings spread within the novel .

***key words**:*
context , interpretation , meaning , position , significance

مقدمة:

يعد السياق من أهم الدعامات التي يرتكز عليها التأويل في تناوله للمعنى و استكشافه ، حيث يكفل بمختلف مستوياته تبرير العلاقة بين موضوع النص و مناسبته، و قد أثبتت اللسانيات النصية فاعليته في تحليل الرواية المعاصرة التي هي في الغالب خطاب رمزي، يبث فيه المبدع أفكاره، بمزيج من الرمزية و الإبهام، فتتوزع بطريقة مسبوكة مشفرة بخاصة عندما يكون الروائي بصدد التعامل مع موضوع له خلفيات و تداعيات حساسة، فيحرص فيه على إضمار موقفه كما هو الحال في رواية " الحَرْكِي " لمحمد بن جبار، التي تعدّ من الروايات الجزائرية المعاصرة حيث اتسمت بالحداثة في أساليبها الفنية و البنائية و تجاوزت مجرد السرد إلى تعميق المعنى و الرؤية.

و لأن الرواية أبيح لها أن تقول ما لا يقال، فهي تعرض لموضوع جريء، و حساس في الذاكرة الجزائرية الجمعية حين سلطت الضوء على" فئة الحَرْكى " ، كما ناقشت الثنائيات الضدية (الشرف/ الخيانة) و(الوطنية/العمالة) وفق تصورات فلسفية من وجهة نظر المؤلف الخاصة، فأتاحت للحركي تصوير التاريخ وفق رؤيته، ومكنت لصوته الوصول بعدما كان مكتوما تاريخيا.و لأنها ضاربة في العمق و التاريخ و مشبّعة بالعواطف و التقلبات النفسية، كان لابد من تأويل دلالاتها ، وتوضيح مواقف الراوي من القضايا المحورية التي تمركزت حولها الأحداث ، وفق مقاربة تأويلية للسياق العام للرواية في بعدها العاطفي و الاجتماعي،

فالنص وليد بيئته، و نتاج ظروف وأحوال معينة ، فإلى أي مدى تساهم معطيات السياق في كشف المعنى وتحديد مسارات تأويله على مستوى الرواية ؟

1- السياق:

يعدّ مصطلح السياق من المصطلحات المهمة في المجال اللغوي، تتسع معانيه باتساع رقعة تداوله عبر مختلف النظريات اللسانية و الحقول المعرفية، و قد تواردت العديد من المعاني في شرحه، و دلّت التعريفات على عمق حضوره بأنواعه و على مرّ الأزمنة في التراث العربي البلاغي، و الدرس اللساني الحديث على حدّ سواء .

و للإحاطة بمفهومه كان لابدّ من تتبع تمظهراته من خلال المعاجم العامة و المتخصصة التي تفاوتت في ضبطه و تفصيل عناصره و تحديد مستوياته :

1-1- المعنى المعجمي:

أ. في المعاجم العربية:

أورد ابن منظور لفظ السياق في مادة "سَوَقَ" بجميع أوجه تداوله على لسان العرب، فكان من مجملها:" ساق الإبل و غيرها يسوقها سوقاً وسياقاً، و هو سائقٌ سوَّاق، (...) و قد انساقت و تساوقت الإبل تساوقاً إذا تتابعت... وساق إليها الصداق والمهر سياقاً وأساقه، إن كان دراهم أو دنانير، وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها، وقال فلان في السياق أي في النزع،... والسياق نزع الروح..."[1]. ويبدو جليا من خلال هاته الاستعمالات أن معنى السياق يصب في معاني أساسية أهمها: (قاد . أعطى . نزع) بيد أنها تكون على نسق واحد بشيء من التتابع والتراتبية.

أما في معجم الوسيط فجاء فيه بشيء من التفصيل:" (تساوقت) الماشية ونحوها: تتابعت وتزاحمت في السير. وتساوق الشيئان: تسايرا أو تقارنا، ويقال يبني القوم بيوتهم على ساقٍ واحدةٍ: على صفٍ واحد. وولدت امرأة ثلاثة ذكورٍ على ساقٍ واحدةٍ، وساقاً على ساقٍ: بعضهم في إثر بعض ليس بينهم أنثى. والساقة من الجيش مؤخرته، و(السياق):

الممرّ، وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه"[2]. و هو بهذا المعنى لم يختلف عمّا جاء في لسان العرب وغيره من المعاجم العربية القديمة والتي لا تميل بصورة مباشرة إلى ما يحدده الفهم المعاصر للسياق كما توظفه الدراسات اللسانية. إلا أنّه من المنصف الإشارة إلى أنّ الزمخشريّ في كتابه(أساس البلاغة) قد تفطن إلى معنى إضافي للسياق حين اهتدى إلى الدلالة المجازية التي ربطها بالدلالة الأصلية والتي لصقت بها لاحقاً، وهو ما اشتغلت عليه المدرسة التداولية. يقول:" و من المجاز : ساق الله إليه خيراً. وساق إليها المهر، وساقت الريح السحاب... والمحتضر يسوق سياقاً، وهو يساوقه ويقاوده، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و" إليك ساق الحديث" وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه على سرده"[3]. ومن هنا انتقلت تداولية السياق من المعنى المادي المحسوس إلى المعنى المجازي المجرّد.

و في القواميس العربية المعاصرة نلحظ نضجاً على مستوى المفهوم و ربطه بروافده المعرفية. فالسياق في قاموس المنجد في اللغة العربية المعاصرة هو:" سلسلة تتابع نظامي (سياق، مراتب) مجرى، تتابع تسلسل" سياق الحوادث: إطار" في هذا السياق أو ذاك" صلة منطقية، ترابط وتلاحم، لا سياق في تفكيره، "سياق الأمر": ظروف يقع فيها." السياق الذي ارتكبت فيه الجريمة." سياق الكلام": سرده وأسلوبه الذي يجري عليه. يقال:" وقعت هذه العبارة في سياق الكلام": أي مدرجة فيه،" سياق وقائع": سرد متتابع، تتابع منتظم"[4]. ويبدو السياق هنا أكثر شمولية من ناحية الاستعمال فهو يصف كل ما هو على متتابع ومنظم.

ب . في المعاجم الغربية:

أمّا في معناه الأجنبي فقد كانت المعاجم الغربية أكثر دقة في تعريفها لمصطلح السياق وأقرب لما جاءت به النظرية السياقية، فجاء في قاموس روبير الصغير السياق بمفهومين:

الأوّل: أنّه نصٌ يحيط بعنصر لغوي (كلمة، جملة، جزء من ملفوظ) ويتعلق بمعناها وقيمتها.

الثاني: فيعني مجموع الظروف التي في إطارها يندرج فعل ما، فهناك السياق السيكولوجي للتصرف، والسياسي، العائلي"[5]. ومن خلال هذين التعريفين ندرك أننا بصدد تقسيم السياق إلى داخلي متعلق بما يحيط الكلمة والجملة من كلمات و جمل، و خارجي مرتبط بما يحيط العبارة والنص من ظروف و حيثيات .

وعرّف قاموس الجيب الصغير (La rousse de poch) بأنّه:" ما يصاحب، يسبق أو يتبع نصاً للتوضيح"[6]. فهو بهذا المعنى شديد الالتصاق بالنصّ و خادم و مفسّر له.

2)المعنى الاصطلاحي:

يعرفه **غريماس (A.J Greimas)** و **كورتيس (J.S Curtis)** في قاموسهما: السيميائيات بأنّه:" مجموع النصوص التي تسبق أو تواكب وحدة تركيبية معينة وتتعلق بها الدلالة حيث يمكن أن يكون(صريحاً) أو (لسانياً). ويمكن أن يكون(ضمنياً)، ويميز في هذه الحالة بأنّه سياق خارج لساني (Extra – Linguistique) أو مقامي(Situationnel)، ويمكن لسياق ضمني أن يشتغل بقصد التأويل الدلالي(l'inter prétation sémantique)"[7].

يتفرع السياق إذن إلى نوعين رئيسيين: (نصي لساني) و آخر(خارج نصي/ تأويلي). في حين ما جاء به **جون دي بوا (J.P Dubois)** كان أكثر تفصيلاً بتضمينه مجموعة من العناصر المترابطة وهي:

. "**المحيط**: أي الوحدات التي تسبق أو تلحق وحدة محددة، ويسمى بالسياق الشفوي.

. مجموع الشروط الاجتماعية: التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني"[8]. و ينضوي هذا التعريف على محددات خارج نصية تسهم في الوصول إلى المعنى انطلاقاً من خارج النصّ لا من داخله.

ومن جملة التعريفات التي أوردناها يتراءى لنا أنّ المعاجم الغربية تعاملت بوعي لغوي دقيق فقد أشارت إلى حمولاته المعرفية خاصة اللسانية الحديثة.

3 . السياق في التراث العربي:

لقد كان لحضور فكرة السياق مركزية متجذرة في الدراسات العربية القديمة على اختلاف التخصصات : بلاغيين، أصوليين و فلاسفة... و لا يمكن الإنكار أنّهم قد اهتدوا إلى كون السياق محدد وموجه للمعنى ، إلى جانب دوره في تحقيق الانسجام النصيّ و التركيبيّ " وتعدّ الدراسات البلاغية من أهم الدراسات التي تؤكد الارتباط الوثيق بين دراسة اللغة و استعمالها في السياق. و كثرة تلك الدراسات تندُّ عن الحصر، فمن أهمها دراسات ابن سنان الخفاجي و السكاكي و الجرجاني و الجاحظ و القرطاجاني و العلوي ، بالإضافة إلى ما جاء عند ابن خلدون في المقدمة "[9]. و لعل أهم هذه الدراسات و أبرزها اشتغالاً و حضوراً في الساحة النقدية إلى اليوم" ما بلوره الجرجاني في نظرية النظم بوصفه دليلاً على الكفاءة الذهنية التي يعتمد عليها المرسل، في إنجاز الخطاب، بناء على المواءمة بين الكفاءة اللغوية الكامنة في الذهن وعناصر السياق الخارجي، وقد مثل للنظم في مستوى التراكيب بوصفه أبرز مستوى تتجلى فيه تلك الكفاءة"[10].

كما يشير تمام حسان أنّ البلاغيين العرب قد تفطّنوا إلى" أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها وأن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصّر المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمون كلاً منها "مقاماً" فمقام الفخر غير مقام المدح، وهما يختلفان عن مقام الدعاء أو الاستعطاف أو التمني أو ... جرّاً"[11]. ولقد ارتبطت فكرة المقام(الموقف) لدى البلاغيين" بالبعد الزماني والمكاني للكلام، حيث

يقدم المتكلم بصياغة كلامه على وجه معين، فإما يتصل كلامه بمحل هذه الصناعة فيسمى (المقام)، وإما يتصل بزمن الصياغة فيسمى (الحال)"[12].

أمّا الأصوليون فنبع اهتمامهم بالسياق لارتباطه الوثيق بماهية علم أصول الفقه "إذ اعتمدوا عليه في استنباط الأحكام الشرعية من النصّ القرآني وهذا الاهتمام الجاد يهدف للوقوف على مقصدية الخطاب القرآني وتأويل معانيه"[13].

4 . أنواع السياق و مستوياته:

تتعدد تقسيمات السياق بتعدد أدواره في تحديد المعنى و توجيهه ، و كما أشرنا سابقاً السياق هو ركيزة نظريات علم الدلالة و عليه فقد تبنّت كلّ مدرسة من المدارس اللسانية تقسيماً متعلقا بخصائصه ، و مستويات اشتغاله فقد فضل **فيرث** (**G.R.Firth**) أن يرى سياق الحالة " جزءاً من أداة اللساني تماماً مثل التصانيف القواعدية التي يستعملها، لذلك يقترح للسياق تركيباً منظماً و ملائماً من خلال تتبع:

أ . السمات المهمة للمشاركين: الأشخاص و الشخصيات و يندرج ضمنها:

1. الجهد اللفظي للمشاركين.
2. الجهد اللالفظي للمشاركين.

ب . الأشياء ذات العلاقة.

ج . أثر الجهد اللفظي.

و يمكن بهذه الطريقة تجميع سياقات الحالة، وتصنيفها، وهذا أمر جوهري إن أريد لها أن تكون جزءاً من التحليل اللساني للغة "[14].

يحيلنا هذا التصنيف على البعد الاجتماعي للغة الذي أقام عليه **فيرث** رؤيته لدراسة الظاهرة اللغوية في أساسها الثقافي التواصلي فهو يؤكد على" أهمية الوقوف على السياقات المختلفة التي ترد فيها الكلمة من أجل الوقوف على معناها وقوفاً صحيحاً، لأن تعدد المعنى يكشف عن عدم كفاية القرائن النحوية الدالة على الأبواب المقررة، و هذا يعني أنّ النمط

التركيبي بحاجة إلى قرينة من خارج الجملة تعرف غالباً السياق "[15]. و لابدّ كما يرى **فيرث** من وجوب ربط النتائج التي تحيل إليها التحليلات السابقة ربطاً يدخل في اعتباره سائر عناصر السياق اللغوية و غير اللغوية ذلك أنّ المعنى عنده هو كل مركب من الوظائف اللغوية و الوظائف الدلالية السياقية.

. يلامس السياق في تحديده للمعنى الجوانب اللغوية الكامنة في النّص كما يتعداها في الجوانب الخارجية المتعلقة بظروف إنتاجه ، و مكنونات منتجه (النفسية والاجتماعية والثقافية...) ، و هذا ما راعاه **فان دايك (Van Dyck)** في تقسيمه للسياق إلى مستويات من حيث التحليل النصي:

1). السياق التداولي: النص كفعل كلامي: حيث يقوم بهذا المستوى على تأويل النص كفعل كلامي، أو كسلسلة أفعال كلامية ، فالوعود ، والتهديدات، و التأكيدات و الأسئلة و الأوامر... هي أمثلة على الأفعال الكلامية، و مهمة التداولية هي أن تحدد الشروط التي يجب أن تتوفر في كل فعل كلامي حتى يكون ملائماً لسياق معين "[16].

و يتشكل السياق التداولي من : " العوامل النفسية والاجتماعية والتي تُحَدِّدُ نَسقياً ملائمة الأفعال الكلامية. و منها: المعرفة التي يمتلكها مستعملوا اللغة ، و رغباتهم ، و إرادتهم و أشياؤهم المفضلة ، و آراؤهم، و كذلك علاقاتهم الاجتماعية..." [17].

2). "السياق الإدراكي: فهم النصوص:

في هذا المستوى تتم معالجة النصوص الإدراكية في المواقف والمعايير والقيم التي يعتمدها المتكلمون"[18].

3). السياق النفسي الاجتماعي: تأثير النصوص:

و المقصود به المفعول الذي تحدثه النصوص على مستعملي اللغة سواء فردياً أو اجتماعياً، و يتحدد هذا بناء على العوامل التالية:

1). مبدأ الوظيفة.

2). الترابط الإدراكي: يمثل المعرفة والمواقف التي تتفق مع المعرفة والمواقف المستوعبة قبلاً.

3). مبدأ تحقيق الذات:(**اجتماعياً وشخصياً**)، و يعني أن تكون المعرفة والمواقف متفقة مع الآراء التفسيرية التي يكونها الفرد عن ذاته وعلاقاته مع مجموعة من الأفراد "[19].

4). السياق الثقافي: و يتعامل مع النص كظاهرة ثقافية " و يكون ذلك باستخراج دور أعضاء المجتمع و حقوقهم و واجباتهم ، و القواعد و الأعراف السائدة بينهم من خلال النصوص و الحوارات المستعملة في المقامات"[20].

فالمعنى الذي تحيل إليه العناصر اللغوية لا بصفة مطلقة على المعنى العميق بل يتجاوز الوصول إلى المعنى ملاحقة الاستعمال الاجتماعي والعاطفي للعبارة وضمن إطارها الزمني و المكاني ، و مجرد التركيز على السياق اللغوي الداخل نصي سيعطينا فهماً قاصراً ، فالمعنى الاجتماعي إذن مكمل للمعنى الدلالي ذلك أن " اللفظ اللغوي لا يستمد مقومات ارتباطه الدلالي إلا بما وافقه من اصطلاح بين أفراد المجموعة اللغوية التي ينزل فيها"[21]. فاللغة نتاج اجتماعي بلا شك، و تشترك في إنتاجها عدة عوامل متعلقة بداخلها وخارجها ولذلك عملت مجموع النظريات على توسيع نطاقه و تحديد مستوياته .

عملت مجموع النظريات على توسيع نطاقه و تحديد مستوياته .

2)- السياق و حدود التأويل في رواية الحَرْكِي لـ: محمد بن جبار

أولا : السياق الروائي :

تختص الرواية بالقدرة على تضمين المعاني وفق أطرها الخاصة و الترميز لغايات المرسل دون مباشرة أو إفصاح " فالنص السردي غالبا ما يعتمد خاصية التبئير في الدلالات و المعاني حيث ينفجر من الداخل ليطلق العديد من الاحتمالات التأويلية غير القاطعة في لجج المعاني المستديرة و المتفرعة، إنه يأخذ بكافة أحوال الكلام، و بكافة فنون القول ليوصل للمتلقي العديد من الأفكار وفق العديد من الأساليب و الأشكال"[22]. فنحن إذن حين

نكون بصدد تأويل هذا النص الروائي لابد من السير باتجاهه في خط موازي له نختبر من خلاله شعورنا و أفكارنا للوصول لتأويلية منتجة و دينامية ، و بما أنّ موضوعها هو "الحركي " و ما لهذا الموضوع من حساسية تاريخية و سياسية ممتدة إلى يومنا هذا فقد أشبعت الرواية بالرمزية، و تعدد الرؤى و الأصوات، ما فرض علينا التعامل معها تأويليا لمحاصرة دلالاتها، و تعرية معانيها المتوارية خلف شخصياتها، و مواقفها و حواراتها ...إلخ، و لانقصد بالتأويل هنا ذلك الفهم الذي نبلغه بالقراءة المباشرة للنص و ما ينجم عنها من تفسيرات أولية، و إنما نقصد به القراءة المزدوجة الداخلية والخارجية للنص الروائي، واستثمار معطيات السياق ومستوياته بغية الوصول لتأويل سياقي ينتج عنه معنى أقرب لمقصدية صاحبه، و موقفه المضمر حول قضية الشرف والخيانة، و لا يتأتّى لنا ذلك إلا بالولوج لعالمه الداخلي عبر السياق العاطفي، و رصد سياقه الاجتماعي، من خلال تحليل العلاقات بين المشاركين داخل المتن الروائي. هذا النوع من التأويل إذن هو تأويل منهجي سياقي يستند إلى معطيات نصية وخارج نصية، ينطلق من خارج النص ليعود إلى داخله، و كذلك بعملية رجعية عكسية من داخله إلى خارجه، حتى نضمن على الأقل مقاربة تأويلية، أبعد عن سوء الفهم، و مزالق تعددية المعنى و لا نهائيته، و بما أن الرواية لها خصائصها الفنية، و مرتكزاتها البنائية التي تميزها عن الأنواع الأدبية الأخرى، فلابد من الانطلاق في تحليلها انطلاقا من معالجة الأسئلة التالية ، التي ستضعنا في نطاق ما أسماه **فان دايك** " النص كفعل كلامي" (acte de langage) فحاولنا الإجابة عنها بشيء من التفصيل :

أولاً : من هو المتكلم في رواية " الحركي "؟

المتكلم في الرواية هو الحَرْكِي" أحمد بن شارف "، الذي يمثل الصوت الطاغي في الرواية، يروي قصتة في هذه المذكرات أثناء فترة انتسابه لثكنة لاصاص (**SAS**)، و عمله مرافقا خاصا للنقيب" مونتروي "، و كبطاقة دلالية فقد عرف نفسه داخل المتن الروائي في عدة مقاطع بأنه : " أحمد بن شارف مواليد 1936، مقيم بفرنسا، متقاعد عن الجيش

الفرنسي"[23]. و يعرف باسم (الحَرْكِي) و هو وصف كان يطلق على"كل شخص التحق بصفوف العدو في صورة من الصور، و أصبح يساهم في كشف عورات المجاهدين و المناضلين، و الحركي خائن من الدرجة القصوى، كانت الثورة تحكم عليه بالإعدام، و الحَرْكِي لفظة شعبية جزائرية نسبة إلى" الحَرْكَةُ". و (الحَرْكي) أو (رجال الحَرْكَة) كانت تطلق على اللذين يحملون السلاح من الجزائريين لمساعدة الفرنسيين، جيشا ومخابرة على ملاحقة الوطنيين و اضطهادهم أو قتلهم "[24]، و بالرجوع إلى ظروف نشأته، و مستوى تعليمه، و الوظائف التي شغلها من أجل الاستفادة منها في السياق النفسي و الاجتماعي لأنها تسهم في تكوين شخصيته و تحديد رؤيته التي بنى على أساسها مواقفه، و كل هذه العوامل البيئية و الاجتماعية سيظهر مع التأويل أنها ستؤثر على نظرته لنفسه و غيره.

كما أورد تفاصيل قبل الانضمام إلى الثكنة يقول: "كنت أسكن في أحد دواوير غابة سيدي عبد العزيز يتيم الأب، توفي أبي في ظروف عادية، كنت شابا في العشرين درست التعليم القرآني و التعليم النظامي بمدرسة زمورة "[25]. و لم يكمل تعليمه المتوسط بسبب الفقر ما اضطره للعمل لإعالة نفسه، و عائلته في عدة وظائف منها: عامل في المقهى، و حرفي، ثم كاتب عمومي، قبل أن تجبره ظروفه الالتحاق بثكنة " لاصاص " و من جملتها ما صرح به في أحد المقاطع أنه لجأ إليها بعد قتله عمه الذي استولى على بيتهم فكانت الثكنة الملجأ الذي سيحميه من انتقام أبناء عمه، و من ضمن الأسباب الضمنية أيضا فقدانه لقطعة الأرض التي ورثها من والده، و التي بفقدانها رمزية لفقدان الانتماء و الأصل الذي يربطه بالأرض:" انتقمت من عمي أشد الانتقام. ضربته ضربا موجعا إلى حد أفضى به إلى الموت، تركته مرميا في الوادي وهو عائد من السوق هنا انتهت علاقتي بالوطن و انتهت علاقتي بالأهل. بعدها طلبت لانتقال إلى لاصاص عين الحلوف"[26]. و من ثم تدرج داخلها إلى أن أصبح السائق الخاص للنقيب " مونتروي "، و مرشده في المنطقة، ما أتاح له فرصة الاطلاع على المراسلات و المخطوطات السرية.

ثانيا : ما هو زمن النص ؟

وقعت أحداث الرواية في الفترة الزمنية الممتدة من 1960 إلى 1962، و بالتالي هي مرهونة بعنصر التاريخ، و مُشَكَّلة منه، وينبغي إذا أردنا استثمار معطيات السياق الخارجية أن ننطلق في قراءتها من ذلك السياق التاريخي الذي أوجدها فهي شديدة الالتصاق به و التماس معه، و لا يمكن عزلها عنه لأن عنصر الزمن من أهم المعطيات التي تجعلنا " أمام مجموعة لا متناهية من السياقات الممكنة التي يستطيع أحدنا أن يكون له فيها أوضاع مخصوصة أعني سياق واقعي، و يتحدد السياق الواقعي بفترة من الزمن، و المكان بحيث تتحقق النشاطات المشتركة لكل من المتكلم و المخاطب"[27]. فلا أحداث تتحقق خارج إطار زمكاني، سواء كان الحدث واقعيا أم متخيلا"، "و يؤكد فان دايك على فاعلية الزمان و المكان في تحقيق الفعل الكلامي المنجز بين المتكلم و المخاطب و يمثلان سياق الموقف"[28] ، و ينقسم الزمن إلى:

زمن فعلي(واقعي) يحدد بزمن كتابة الرواية عام 2016، و زمن متخيل و هو الذي تنبني فيه الأحداث المتخيلة للرواية، و هو مؤطر بالفترة الممتدة بين (1960-1962) و هي فترة حاسمة في تاريخ الجزائر مثلت تأجج الثورة التحريرية، و ما صاحبها من صراعات سياسية وحربية على الجبهتين: (الجزائرية الفرنسية)، و (الفرنسية الفرنسية) بسبب توالي سقوط الحكومات الفرنسية، و الانقسامات داخل صفوف الجيش الفرنسي نتيجة تمرد بعض الضباط، وتشكيل منظمة الجيش السري، و لأن الزمن مكون للأحداث، و مشكل لها، فقد توزعت بتسلسل زمني محدد قائم على تشخيص تجربة ذاتية للبطل، و رصد الوعي الجماعي تبعا لهاته المرحلة، بدءا من انضمام" أحمد بن شارف " لثكنة لاصاص وصولا إلى تاريخ الاستقلال وخروجه مع الفرنسيين من الجزائر، لتكون الرواية صورة من صور التمثيل التاريخي، اتكأى الكاتب في بناء أحداثها على التاريخ، باقتدار و تصوير عميق، فجاء تقسيم فصولها تقسيما زمنيا تبعا للأحداث المفصلية في حياة البطل أثناء تواجده في الثكنة

أثناء الحرب، و التوترات السياسية التي خلقتها و وَقْعُهَا عليه، و تصوير كيفية تفاعله معها على التسلسل الآتي: " 1960 إقالة الجنرال **ماسو** و الجنرالات المنشقين معه، والتخبط السياسي في الحكومات المتعاقبة، وتعيين الحكومة المؤقتة بزعامة **أحمد بن بلة** و رفقاءه، 1961جانفي الاستفتاء العام حول تقرير المصير، ماي 1961 انضمامه للكتيبة العسكرية و حمله السلاح و الهجمات المستعرة على الأرياف و القرى بالحرق و التقتيل ...إلخ، سبتمبر 1961 المؤتمر الصحفي **لشارل ديغول**، و الاعتراف بحكومة الثورة الجزائرية ، جانفي ــماي 1962 الأعمال الإرهابية في المدن الكبرى من طرف المنظمة السرية، و مفاوضات إيفيان ...، و 19مارس يوم السلام، جوان وصول أحمد بن شارف إلى مخيم" بور غلاستيك " ومع استقراره بفرنسا إلى آخر أيامه ، و فقدان ذاكرته إشارة ضمنية لنسيان التاريخ، و هو آخر ما قد يربطه بالوطن .

ثالثا : ما هو المكان المؤطر للنص ؟

ينقسم المكان بدوره إلى: مكان عام (بلدية عين الحلوف) التابعة لمدينة غليزان ــ و هي منطقة جبلية نائية ــو مكان خاص : و هو ثكنة الفرقة الإدارية المتخصصة (**S.A.S**) التابعة لبلدية عين الحلوف التي كانت مسرحا لأحداث الرواية بكل فصولها، أين اجتمع الجنود و المستخدمون الفرنسيون، مع المخازنية و الحركى ممن تطوع لخدمة المصالح الفرنسية تحت إدارة ضباط مخضرمين أمثال **مونتروي** و **بيير أليغري** ، و هي عبارة عن "فرق أريد لها أن تكون أداة للحرب الحقيقية، و جهازا لتجاوز التحديات التي خلقتها الثورة، وآلية لعزل

الشعب ومنعه من التفافه حول الثورة (...) بالإضافة على علاقتها بمصالح الاستعلامات و موقعها من خطط الحرب البسيكولوجية التي مارستها جميع المصالح الأمنية الفرنسية "[29].

هذه الفرق الإدارية توزعت عبر القرى و الأرياف بهدف كبح الثورة، و اعتبرها العديد من المؤرخين العدو الحقيقي للثورة التحريرية، و هي كما وصفها البشير الإبراهيمي في مقال له

بجريدة البصائر قائلا : " حلت الحكومة العامة بقيادة **جاك سوستيل** إلى اللجوء إلى ضباط مختصين في الشؤون الجزائرية، مهمتهم الأساسية كانت أخذ زمام إدارة السكان بيدهم ، و إعادة ربطهم بالإدارة الاستعمارية وعلاج حالة التفكك الذي ميز العلاقة بهم ، و إيجاد علاجا للقصور السائد في ميدان الاستعلام السياسي والاستخبار العملياتي"[30]، يقول " أحمد بن شارف " عن أهداف الثكنة الخفية و الظاهرة " إذا اعتبرنا أن الكتيبة أهم مهامها هي الاستخبارات فضلا عن دورها الاجتماعي و الصحي و التعليمي و البسيكولوجي ، و تنفيذ و مراقبة مشاريع التنمية في المنطقة ظاهريا"[31]، و من جملة نشاطاتها، يقول:" سنوات مرت و إدارتنا " الكتيبة الإدارية المتخصصة " S.A.S " عملت على تجميع الدواوير المتشظية في وحدة " بلديات مختلطة " و قمنا بإنجاز مشاريع عديدة، كتمهيد الطرق و فتح المسالك وتهيئة العيون. قمنا بتعيين الشخصيات المؤثرة في مناطقهم للرقابة و التحكم و التجسس و الإعلام. كانت مهمة جدا هذه الخطوة"[32].

كان هذا توصيفا لها على لسان **النقيب مونتروي** لماهية الفرقة و تخصصاتها المعلنة و المضمرة، و قد ركز الراوي داخلها على مظاهر الحياة اليومية لمجتمع الحركى في أدق تفاصيلها، كشريحة اجتماعية منبوذة تواطأت مع العدو، وخانت الوطن، بالسلاح و المخابرة، فنقل مهامهم و وظائفهم و حواراتهم ، دوافعهم ، و آمالهم، و حتى هواجسهم ... إلخ، يقول:" رجال " المخزن " الذين يجتمعون في ساعات الصباح الباردة للاستحمام بأشعة الشمس قبل مباشرة أعماهم الروتينية، يلتزمون الصمت المطبق (...) يغنون أغاني بدوية و جبلية و يجللون باسم الرّب. يستعرضون شواربهم الكثة و أجزاء من أجسادهم التي تخطها أوشام القبيلة أو السجون، بفعل العشق أو الشقاء أو الحقد أو النوازع الإنسانية"، كما أبرز طبيعة العلاقة المضطربة بينهم و بين الجنود و المستخدمين الفرنسيين فذكر بأحد المقاطع:" منذ حادثة أوت للسنة الماضية اتضحت كثير من الأمور، طفت مشاعر الكره بين المخازنية العرب و الأوروبيين سواء كانوا جنودا أو مدنيين، أصبحت أكثر حدة أكثر

انقساما و أشد توترا. يمكن رؤية ذلك الخلاف بشكل جلي ، من الوجوه المقطّبة أو التلاسُن أو إشارات تفيد الوعيد و التهديد (...) الانقسامات و العنصرية و التعالي و عقدة التفوق لدى الأوروبيين أصبحت مفردات متداولة، و الجزائريون من يهود و مسلمين كانوا مستهدفين بقوة داخل الثكنة"[33]، و هذا ما يتبدى في مقطع آخر، و هو يتحدث عن هشاشة العلاقة و زيفها، خاصة إذا تعلق الأمر بتصفية أحد المخازنية أو الحركى بنبرة من الحسرة و الأسف:"كم هي الصداقة هشة، و كم هي مؤسفة عندما تنتهي برصاصة قاتلة تستقر في الجمجمة، تلك الصداقة لا مشاعر فيها و لا إنسانية و لا تؤتمن، هي مجرد كلمة لتغطية سوأة علاقة غير طبيعية لا تلتئم، صداقة بنكهة الثكنات و الرشاشات و العساكر، هي أجمل زيف نسمعه و نعيشه، ليست سوى وردة مزيفة خارج المواسم، هي وردة خادعة، محتالة، أشبه بوردة بلاستيكية لا رائحة لها و لا عبق و لا عطر، ما أسوأ هذه العلاقات"[34].

كما أنها _ الثكنة _ المعقل الذي كان يسحل إليه من يشتبه بهم من الثوار أو (الفلاّقة) _كما يطلقون عليهم _ للتحقيق أو الإعدام، لقد كانت مسرحا يعجّ بالأحداث و الصراعات، و مرتعا لمزيج متنافر من الأنماط البشرية بعقلياتها، و تصوراتها، و انتماءاتها اجتمع فيها الشريف و الخائن و المؤيد و المعارض، و الفرنسي بسلطته، و الحركي بدونيته، هذا التعدد في الأصوات، و الرؤى يحيلنا إلى فرضية مفادها أنّ الراوي مثّل الجزائر في تلك الآونة بالثكنة فأسقط عليها الأحداث، و مثل لأطرافها بشخصيات من نسج خياله أتاح لها فرصة سرد التاريخ من جانبها فهو يعد التاريخ معطى عاما، و ليس حكرا على جهة معينة، ولا يحق لأي جبهة أن تحتكره لطرفها وتلغي الأطراف الأخرى، أو تكتم أصواتها.

رابعا : ماهو موضوع النص ؟

لا يخلو عمل أدبي سواء كان شعرا أو نثرا من فكرة مركزية تتمحور حولها الأحداث مشكّلة موضوعه، و لأنّنا نؤمن بأنّ الرواية عالم متخيل يصب فيه المبدع رؤاه، و يبث أفكاره التي تتبناها الشخصيات، و تمتثل لها، و لتحديد الموضوع لابد أولا من تحديد نمط الرواية

التي تدخل في خانة المذكرات يقول في المقدمة " هذه المخطوطة التي أقدمها بين أيديكم هي ثمار جهدي في تدوين تفاصيل المرحلة بكرونولوجية ذاكرة الرجل الحريص، تتبعت الأحداث التي مرت علينا اغفلت بعض المواقف وتحفظت على بعض الأسرار "[35]. تبرز المفارقة في أنّ الروائي "محمد بن جبار " على غرار من سبقوه في كتابة الرواية الثورية الذين جعلوا للبطل صورة نمطية موحدة، إما مجاهدا أو مسبّلا أو مخبرا للجبهة ... إلخ، نجده آثر الخروج عن المألوف في روايته، و اتخذ لها بطلا حركيا (خائنا)، و قدّم له بالأسباب و الدوافع، و لفّه بمجموعة من الظروف دفعته مرغما للوقوف بصف فرنسا، ما قد يحذو بالقارئ إلى درجة من التعاطف معه في محاولة منه لتثوير الفكر نحو مساءلة تاريخية يسمح فيها بمشاركة جميع الفئات، بما فيها " الحركى "كشاهدين على مجريات الأحداث ، و لهم من الحق ما لغيرهم ، يقول" أنا مجرد شاهد فترة زمنية من تاريخ فرنسا في الجزائر"[36]، و يؤكد مصداقيته في السرد بقوله " استندت في كتابة هذه الشهادات على كل ما وقع بين يديّ من و ثائق و تقارير و مراسلات و جذاذات الأوراق التي كتبتها يوما، و ما رأيته و عاينته بنفسي و ما عرفته حين ذاك"[37]، كما هدف من خلال هذه المذكرات أيضا تجسيد العواطف الجياشة التي اعترته، وتفاعله مع الظروف السياسية آنذاك يقول:" من نعم الله أنني بدأت في كتابة هذا المخطوط آملا أن أجد من يستمع إليّ، لاتهم الأحداث التاريخية التي سوف أسردها بدقة ــبافتراض علمي بها ــ بقدر ما أريد تجسيد تلك العواطف الجيّاشة بطبيعتها، الأضعف من صوت الرصاص ودوي المدافع..."[38]، كما تناقش الرواية ثنائية الشرف و الخيانة انطلاقا من زعم الراوي بأنّ الشرف قد يحمل في طياته الخيانة، كما قد تكون الخيانة تحت ظرف ما أسمى معاني الشرف، يقول: "الشرف و الخيانة ليستا كلمتين بسيطتين و ضحلتين كما يتصورهم أصحاب الشرف، يملؤون بها فراغات الحديث ، كلمتان معقدتان يتداخل فيهما الشرف بالخيانة، ففي لخيانة قد يتجلى الشرف و في الشرف غالبا ما تحمل بذور الخيانة. أنا هنا لا أبرر و لا أطرق سبل الالتفاف على الوقائع و على

التاريخ، لكن أدعو القراء لقراءة الواقع الآن"[39]، و كأنه يرمي إلى أنّ الخيانة ليست التي تكون تحت وطأة الحرب فتلك حسبه مجرد موقف ، أما ما يحدث الأن من خضوع لفرنسا و اتفاقيات سرية ... هي الخيانة الحقيقية، و في موضع آخر يقول:" الخيانة لا تكون إلا إذا كانت جماعية أما الخيانة الفردية فهي موقف، اتخذت موقفا يوما، و دخلت في الصف الفرنسي و وجدت نفسي في خضم أحداث الجزائر"[40].

كما يرى أنّ الشرف و الخيانة صفتان شديدتا الالتصاق بالعسكر" العسكريون لهم عقيدة مبنية على الشرف و الخيانة أكثر من غيرهم الذين تتميع عندهم الكثير من المفاهيم (...) الخيانة و الشرف مصطلحان مطلقان لدى العسكر، و حياتهم تدور حول هاتين الكلمتين. يريدون الشرف العسكري و لا يمنحوه لغيرهم ."[41] من خلال هذه التلميحات يبدو جليا أنّ الراوي يحمّل هاتين الكلمتين قيما معيارية خاصة به، يقول: " قضيتي عادلة على ما أظن إذا كنت خائنا لوطنك كن خائنا إلى الأبد و بجدارة، لا مجال للمتاجرة و لزئبقية المواقف و تحين الفرص و الانتهازية المقيتة، لعل في الخيانة خيانة أخرى، إذا اخترت طرفا أو موقفا فاذهب في اتجاهه إلى آخر الطريق، التردد خيانة، الالتفات إلى الوراء أيضا خيانة"[42]. تتجلى هذه النظرة أيضا في تصنيفه لشخصياته على مستوى المتن الروائي، فجعل منها الحركي الشريف و مثّل له بعدة شخصيات منهم: أحمد بن شارف، بن عصمان، جلول الهبري مسؤول المخازنية، بن عيسى الريح، و قادة بوعمامة ، و على النقيض جعل البعض الآخر منهم خائنا ـ لحركيته ـ أمثال : ماحي النمس، قويدر الهجال، و بوزيان الطلبي، أحمد بلوط، الذين قال فيهم:" أولئك المخازنية الذين كانت عقيدتهم خبيثة فقد بلغوا المرحلة المومیائية في واقع الأمر، و هذا ما تأكد مع الأيام أنهم أرواح شيطانية، لا تهمهم فرنسا و لا الجزائر و لا العالم الآخر ...فتحولوا إلى أرقى درجة حيوانية ممكنة"[43]، كما أتاحت الرواية لهذه الشخصيات التي مثلت فئة (الحركى) أن تسرد ما عاشته، و تنقل بدورها صورة مغايرة عما رسخ حولها من أفكار التخوين، و الاستبعاد، و تُسمع —

حسب الراوي – صوتا مكتوما لعقود يرى بأنّ له كامل الحق في نقل التاريخ كما عاشه، و عايشه، فنقل معاناتهم كفئة منبوذة من الطرفين الجزائري و الفرنسي يصف حالهم قائلا : " ليس أكثر من موتى نحن، موتى أحياء يسابقون زمن الخيانة و المواقف المنحرفة، طبعا نحن في موقف صعب و التاريخ يسجل مجده و انتصاراته لصالح المنتصرين، لو أحكمت فرنسا يديها و لم تتراخ مثلما هي عليه اليوم، لكان الآفلانيون هم " الحركى " و ليس نحن، الحرب قبل أن تكون حربا فهي مواقف تعتمد على الجهة التي ينظم إليها إمّا رجال الشرف و إمّا رجال الخيانة"[44]. لفظتهم فرنسا و تخلّت عنهم، و رفضتهم الجزائر و اعتبرتهم خونة.

الخيانة"[45]. لفظتهم فرنسا و تخلّت عنهم، و رفضتهم الجزائر و اعتبرتهم خونة.

2_ السياق الاجتماعي و العاطفي:

مثلت الرواية أفقا واسعا، و ممتدا تتداخل فيه مقامات الكلام و أحواله الداخلية(العاطفية و النفسية)، كما تتداخل فيه المقامات الخارجية (الاجتماعية و السياسية)، بيد أننا في هذا المقام اكثر ما يعنينا هو رصد الأحوال العاطفية و النفسية بغية الوصول إلى رؤية الراوي المبثوثة وفق مستويات متعلقة بالنص في بنيته السياقية المتعلقه بمضامينه العاطفية ، حيث سنركز على تتبع العبارات التي تحمل كثافة عاطفية، و التي هيمنت على النص بشكل لافت ، و على هذا المستوى يتم تحديد" درجة القوة والضعف في الانفعال، ما يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالا"[46]، فالروائي صنع البطل بطريقة مُقنعة، و مقَنّعة، و بدأ السرد على لسانه، و استقى شخصياته من واقع تاريخي متخيل، ضمن واقع اجتماعي من خلال أفعالها، و أقوالها و أنماط تفكيرها، فهي تعيش داخل الرواية مع شخصيات أخرى تتفاعل معها، و تتعالق بها، و تقمصت أدوار أنيطت بها من طرف مؤلفها الذي بناها و شكّلها، و قدمها بمزيد من العناية و الاكتمال ثم ساهمت الأحداث في تسييرها، فبالنسبة للبطل إنبنت مواقفه على اعتبار مجموعة من الأحداث المحورية في حياته فسرقة العم للأرض أدى إلى تشتيت العائلة، و الانتقام منه بالقتل، ثم اللجوء إلى ثكنة لاصاص، ثم بخسارة فرنسا

الحرب غادر الجزائر، هذا التسلسل في الأحداث شكل لنا البنية النفسية للبطل التي سنفصل فيها لاحقا.

أما الشخصيات الأخرى (بقية الحركى) داخل المتن فمن الملاحظ أنها تعيش قلقا دائما مع ذواتها و مع محيطها، لها موقع اجتماعي محدد يمثل الانتماء لصفوف فرنسا، ووفقا لهذا الموقع تتبنى هذا الموقف أو ذاك يصفهم الراوي قائلاً:" هؤلاء المساكين الذين انحدروا من دواويرهم و قراهم المستعصية على الطوبوغرافيا، لا يعرفون المصير الذي ينتظرهم، سوف يتخلى عنهم العالم، يلفظهم الاهل و الأقارب و يتنكر لهم الجميع و يجرجرون من وراءهم سوء السمعة أينما حلّوا و ارتحلوا "[47].

وفي أحد المقاطع يبين بوضوح مدى القلق و التوتر النفسي جرّاء المآل الذي سيؤولون إليه من الطرفين (الفرنسي و الجزائري) يقول على لسان بن عصمان:" أنا و أنت كلنا في قدر واحد، نتقاسم نفس المصير و المعمعة يا رفيق سيُمثل بجثتنا و يناولونها للكلاب لنهشها"[48] ، و في مقطع أخر تبدو فيه النظرة السوداوية، و الاستسلام أكثر سيطرة على نبرته" و إن كان ذلك قدرنا ، فكل محاولة للتنصل من القدر و من مصيرنا الذي آلت إليه أمورنا مصيرها الفشل (...) سيمثلون بجثتنا ثم يتركوها على قارعة الطرق لتنهشها الكلاب، و هذا وارد جدا و يعرفه كل أشخاص المخزن و كل الحركى و كل الإضافيين (...) إنها مرحلة الهدوء الكبير، إلاّ أنّ القلق ينتابنا و صار يتلاعب بنا في كل لحظة من اللحظات التي نعيشها داخل الكتيبة، قلوبنا لا تهدأ، عقولنا في حركة مستمرة تتلاطم فيها مشاعر متناقضة أحيانا"[49].

و من الجدير بالذكر وجود تماثل بين بنية المجتمع الروائي، و علاقات الشخصيات ضمن هذا الفضاء، فقد توزعت الشخصيات حسب التنميط الاجتماعي إلى تابعة أمثال (الحركى المغلوب على أمرهم و يمثلون الحلقة الأضعف)، و شخصيات متبوعة مثلت لها قيادات فرنسية (كأليغري و مونتروي)، يهدف هذا التوصيف للشخصيات إلى تشخيص

علاقات الشخصيات فيما بينها في الإطار التخييلي الذي قدمت فيه لإبراز الجانب النفسي والاجتماعي الذي يرمي له الراوي، و هذا البعد الاجتماعي هو الأساس الذي يقوم بناءه على الائتلاف و الاختلاف و التعايش و الصراع والذي تجلى على مستوى الرواية في مفهومي الوطنية وعلى النقيض منها الخيانة. إنّ أبعاد الشخصيات هنا بأصواتها، و رؤاها تأتي دلاليا بمعناها النقدي حيال ذواتها، و واقعها ، ضمن البنية الاجتماعية التي ظهرت في إطارها و تتجلى هذه الأبعاد في (السخرية من أقدارهم، المعارضة لصوت السلطة الفرنسية وسلطة الجبهة على حد السواء)، و بالتالي هي رؤية نقدية حيال كل مايجري في التاريخ، و المجتمع و الإيديولوجيا، يقول أحد الحركى بنبرة تهكمية ساخرة" يا بن شارف مهلا على قلبك الضعيف، سيان أن تموت الأن على يد " مجاهد " أو على يد " شعبّي "، إذا كان الموت هو مصيرنا فلا تشغل بالك، عش لحظتك و تقاضى أجرك و اسكر حتى الثمالة و إذا كانت عندك حبيبة، إعشقها بجنون، نحن كمن يذهب إلى حتفه، إلى المقصلة، مسألة أيام عاجلا أم آجلا، شخصيا لم أعد أكترث لفلسفتك و مخاوفك "[50]، و قد مثل الراوي لحالتهم بأكثر من مثال فهم " مثل الأطفال الذين ينتظرون أمهم كي يشعروا بالأمان و الرعاية"[51]، و في مشهد آخر يقول:" أصبحنا مشكلة عويصة أشبه ببقرة أنجبت قنفذا، لاهي باستطاعتها الاقتراب منه و إرضاعه و لا باستطاعتها النفور منه و تركه يموت جوعا، مشاعر متصادمة متناقضة، مشاعر مشوبة بالكراهية و الشفقة، مشاعر تتداخل فيها نكهات و أذواق غريبة هكذا نحن بـ" قنفذيّتنا " نعوّل على أدنى مشاعر التعاطف الإنساني لتحيطنا برحمتها بإنقاذنا من الموت المحتّم"[52].

بالنسبة للشخصية الرئيسية داخل المتن" أحمد بن شارف " فقد تتبعنا تمضهرات " الأنا " الخاصة به خلال اللغة في سياقها العاطفي، فاللغة " لا تحتكم إلى العقل فقط بل تمتزج بالعاطفة في أحيان كثيرة فإنّ الأديب عندما يستعمل اللغة فإنه يقوم بتوظيفها و استغلال إمكاناتها للتعبير عن أغوار نفسه، فهو تارة يستخدم التشبيه أو الاستعارة ، و تارة

يستخدم الرمز و الإيحاء و بهذا تكتسب الأساليب قيمتها التعبيرية "[53]، و قد أشار الراوي في مقدمة متنه أنّ الهدف من نصه هو تجسيد العواطف الجياشة ، فالعمل الأدبي لا ينفصل عن شخصية مبدعه ذلك أنّ " التعبير الفني صياغة لتجربة تحكمها مثيرات و حوافز داخلية و خارجية "[54]، و عليه فالتحليل النفسي للعبارات و تتبع درجات الانفعال له قيمة في التأويل لا محالة، فالمؤلف يعبر عن نفسه، و فكره عن طريق شخصياته، و يؤكد السياق الانفعالي في مستويات تحليله على" المنابع النفسية للنص الأدبي، و دورها في إضفاء القيمة الجمالية عليه، فالتحليل النفسي للنصوص يتضمن الجانب الانفعالي فهو بقوم على دلالات الألفاظ ومعانيها النفسية عند الأفراد"[55]، تلك المعاني التي تكون في كثير من الأحيان أكثر خصوصية من المعاني الإشارية المتعارف عليها" فإن الألفاظ في العبارة أو النص قد تتجاوز معانيها الإشارية المتواضع عليها إلى معاني ضمنية يضفيها المبدع عليها، و تؤدي هذه المعاني وظيفة تعبيرية خاصة"[56].

إنّ الراوي في المتن يضمن عباراته بدلالات معينة يشعر بها ويحس بها فيعبر عنها تعبيرا خاصا يأخذ القارئ إلى عالمه الداخلي، ذلك أنّ له خبرات أثرت فيه بصورة ما فشكلت نظرته لنفسه، و حددت موقفه الفكري إزاء الوطن و الوطنية، و رسمت معالمه الداخلية التي يمكّننا التأويل من رصدها، بالتركيز على العبارات العاطفية الواردة التي وصف بها نفسه، و حواراته الداخلية، في محاولة للوصول لفهم أقرب لرؤية الراوي و فكره، و صراعاته و تقلباته و هواجسه، وتأملاته الداخلية يقول:" و أشعلت سيجارتي متأملا روحي كأني أراها لأول مرة، كنت أتساءل عن كل شيء، و قفت أمام نفسي بشجاعة نادرة، طيب أنت الآن حركي، سواء حملت السلاح أم لم تحمله، أنت خائن، خائن وطنه، هكذا يقولون عنك، يجب أن تعرف الحقيقة بكل قذارتها، فأنت قذر و مغرق في القذارة"[57]. على هذا المستوى من التحليل تظهر مواجهته لنفسه بأنه خائن لا محالة، فهو معترف، و مقرّ بخيانته وهذا الاعتراف سيودي به إلى حالة من التصالح مع خيانته و تقبّلها، هذه

الحالة من السكينة أعفته من تأنيب الضمير الذي طالما أرّقه" أفرغت زجاجة تلو زجاجة في جوفي، كانت البيرة تغريني بالمزيد و الأسئلة تتهاطل علي أتجاوب معها بكل عفوية، بكل بساطة، أشبه باعتراف أمام قريني الذي لم يعذبني و يحرجني بالأسئلة، هو الآن أقل حدة مما كان عليه من قبل هو الأن أقرب من روحي ..."[58]. فقد ذكر في أكثر من موضع حجم العذاب النفسي الذي كان يعيشه" هو لا يعرف أنّي أعيش الجحيم، جحيم الضمير، جحيم اللعنة التي ستحل علينا يوما "[59].

كما توحي عبارة" خانتني الشجاعة لأتقدم، و متى كان لشخص مثلي مثل هذه الشجاعة، كنت أضحك بقوة، جلبت انتباه المارة"[60] إلى نظرة احتقار و استهزاء، و إقرار بضعفه و جبنه، بطريقة انتقادية لاذعة، " هذه المرة بقيت أحملق في وجهي كأنني أراه لأول مرة، وضعت موسى الحلاقة وبدأت أتأمل هذا الوجه سيء السمعة، يجر تاريخا مثقلا بالخيانة ، تحفر بعيدا في مساماته ، رغم جمال هذا الوجه العربي و وسامته فإنه متسخ برذيلة الحركى "[61]، تدل هذه العبارة على عمق تجربته الحزينة و انعدام القيمة الذاتية للبطل، و جلد الذات الذي يمارسه على نفسه، نظرة قاسية أفضت به إلى حد إلغاء الذات" لم أعد أشعر بالخيبة التي طالما كنت أعيشها من قبل، يجب أن أُعد نفسي لمرحلة أكثر خطورة حيث تباع جلود الدببة قبل اصطيادها"[62]، على هذا المستوى ندرك درجة اليأس في كلماته والاستسلام لمصيره المؤجل، فقد اقتنع أن البؤس و اللعنة هما المصير المحتوم له، و لأمثاله" لطالما كنت أؤمن أنّ الأخطاء لا تصدر إلا منّي و قد تلبّستها اللعنة، لعنة الثكنة و الحرب و المخازنية و بؤسهم الأبدي"[63]، و على مستوى أعمق نلتمس في وصفه شيئا من اللاانتماء و الغربة النفسية "وضعي أسوأ مما تظن يا كازانوفا، موقفي هذا يجعلني منبوذا من كلا الطرفين. لا أنا جزائري مسلم و لا فرنسي و لا يهودي، أنا كائن تائه بتهمة الخيانة، عشت غريبا و سوف أموت غريبا"[64]، فمشاعر التيه و الغربة جاءت نتيجة لتخلي فرنسا عن الحركي رغم تضحيته و ولاءه، و تخوينهم من طرف الجبهة التحريرية يقول:" ليس لنا ما

نفعل الآن سوى تأمين حياتنا بشكل غريزي أو فطري، حياتنا الرخيصة هو آخر ما تبقى لنا، مرغمون أن نعيش حياة ثانية موتا أو فرارا أو هجرة أو تيهانا، فأركان البيت الفرنسي تتقوض وآيلة للانهيار في أيّ لحظة"[65].

لقد وُفق الراوي لاختيار مجموعة من الكلمات ذات الحمولة العاطفية الجياشة التي تنقل القارئ لعالمه الداخلي و يشعر بمشاعر الخذلان و الخيبة " أشعر بالبرد في أوصالي، يكاد الدم يتجمد فيّ رغم أنّي ضاعفت اللباس، الأمر لا يعود إلى برودة الجو بقدر ما هناك عواصف ثلجية تجتاح قلبي (...)، حالة نفسية تستبق الأحداث، أحداث سيئة ستحدث لنا، ألا ترى كيف أن الفرنسيين بدأوا يتخلون عنا؟"[66]. و من الملاحظ أنّ حالة الاغتراب هذه ظلت تلازمه لآخر حياته " في تلك اللحظات التي كنت أودع فيها الجميع، شعرت بغربتي، تحولت الكتيبة فجأة إلى مكان للاغتراب و الذكرى، كأنّ العالم حولنا توقف فجأة، استحال إلى خراب"[67].

يعد موقف " أحمد بن شارف " متذبذبا و ضبابيا في توصيف أقرب للفُصام ففي البداية نجده يقرّ بكل فخر بانتماءه واختياره لفرنسا : " اخترت مصيري، في حين كثير من أقراني لم يحصل لهم شرف تحديد مواقفهم. اخترت فرنسا، أحببتها، تشربت روحها، اعتنقت أفكارها، تكلمت لغتها و تجنّست، استفدت من الرعاية و الامتيازات الاجتماعية و المهنية و الصحية"[68]، و في اعتراف آخر" هذه المذكرات ليست طلبا للغفران أو محاولة توبة أو مخاطبة ودّ الناس أو تكفيرا عن خطايا، لم أندم يوما. اتخذت موقفا ذات يوم ومشيت على نهجه إلى النهاية"[69]. " الوطن لم يكن هاجسي، الوطن له من يدافع عنه، شعرت بالظلم فثأرت لنفسي "[70].

لكنّ المفارقة تتجلى حين يذكر السبب الأعمق للخيانة في مقطع مونولوغي يسأل فيه نفسه و يجيب " لماذا تورط هذا الوجه في مستنقع التاريخ و الخيانة ؟ لكنّ الناس لا يعلمون أنه من ضاعت منه قطعة صغيرة من أرضه قطعة من قلبه وطفولته (...) لا

يعرفون أنّ قلبي تمزق في عزّ الطفولة و اغتصبوا براءتي رغما عني، مستقبلي و حاضري هو تهتك سرمدي لشخص دفع دفعا نحو هامش التاريخ أقتات من الخيانة بدل الشرف "[71]، ربما أراد بهذه الإشارة أن يبرر للمتلقي خيانته بوضع نفسه في مقارنة بين وطن تنكّر له و حرمه أبسط حقوقه من الإيواء و الحماية و فرنسا التي وفرت_ امتلئ الفضاء الدلالي في النص بالمتناقضات (الشرف _ الخيانة)، (الشجاعة _ الجبن) (المستعر _ الثائر) (الحرية _ التبعية) عمل السياق على حصره في حدود المناسبة و الملائمة، و ترسيم حدوده، فالراوي يعاني حالة من التمزق الداخلي، و الانفصام بين انتماءه لوطنه الأصل الجزائر، و بين فرنسا التي اتخذها وطنا بديلا مرغما. يتبادر إلينا من خلال تحليل ما سبق أنه كان يحمل عبئا وجوديا فهو في تخبط دائم بين مشاعر متنافرة و مواقف متباينة نجده بين إقرار لخيانته وتحجج، و بين إنكار و تردد. النهاية التي منحها له الراوي منصفة إلى حد بعيد فبفقده للذاكرة خفف عنه عبئ الخيانة ، و عبئ الذكريات المريرة، و عبئ الاغتراب عن الوطن ...إلخ، ثم تكريمه من طرف الحكومة الفرنسية بوسام الشرف في آخر أيامه. له ما يحتاجه من الرعاية و الحماية.

الخاتمة:

_يتبدى لنا من خلال هذه المقاربة التأويلية للرواية أنها رصدت الواقع المعاش آنذاك و أحسنت تصويره ، عبر مستوياتها السياقية الداخلية و الخارجية ،كما أسهمت في نقل التجربة بعمق، و كشفت المعاني المضمرة التي يصعب إدراكها بالقراء النسقية لها بمعزل عن الحيثيات العاطفية والاجتماعية ... ، و من جملة المعاني المستنبطة التي أحالت إليها المقاربة أن : الراوي هدف في روايته " الحركي " إلى تعرية بعض الحقائق بجرأة متناهية، في دعوة ضمنية منه للتثوير و المساءلة حول بعض المسلّمات التاريخية ، و إعادة النظر فيها، و في شرعية العلاقة بين الحركى و الفرنسيين ، بعد ما نبذهم الوطن و احتضنتهم فرنسا، و الدعوة للتصالح معهم. كما استطاعت الرواية تضمين المعاني ضمن أطرها الخاصة، و الترميز لغايات المرسل و المتمثلة في :

محاولة لتبرير الخيانة تحت وطأة الظروف القاهرة. و استجداء التعاطف معهم كضحايا مغرر بهم . إضافة إلى لفت الانتباه لبعض المفارقات التاريخية ، وأنّ التاريخ معطىً عام وليس حكرا على جهة معينة ، و عليه قد يؤتمن الحركي على كتابة التاريخ كشاهد على مجرياته. كما عمد إلى خلخلة النظرة المطلقة لثنائية الشرف و الخيانة ، و الإقرار بنسبيتهما وأنهما خاضعان للظروف و ليس للمبادئ.

الهوامش:

[1] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، الجزء العاشر، دار صادر، بيروت، ص 166 . 167.

[2] ينظر : المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الجزء الأول، الدار الهندسية، الطبعة الثالثة، ص482.

[3] ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998، ص484.

[4] صبحي حمودي، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، الطبعة الأولى، بيروت، 2000، ص725 . 726.

[5] ينظر، علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2000، الدار البيضاء، المغرب، ص31.

[6] المرجع نفسه، ص31.

[7] المرجع نفسه، ص31.

[8] ينظر: المرجع نفسه، ص34.

[9] الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، 2004، بيروت، ص06.

[10] ينظر: المرجع نفسه، ص 07.

[11] ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها ، دار الثقافة ، ط 1994 ، الدار البيضاء ، ص 337.

[12] ينظر: عاصم شحادة علي، علم اللغة النصي و دوره في شرح الحديث وفهمه (أحاديث الجهاد و السير في صحيح البخاري) ، المجلة العربية للدراسات اللغوية ، العدد19 . 20 ، محرم 1433هـ ، ديسمبر 2011م ، ص07.

[13] ينظر: ملامح النظرية السياقية عند الإمام الشاطبي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد 14، الجزء الثاني، 15 جوان 2018، ورقلة، ص 246.

[14] نعيمة دهش فرحان المالكي، امتدادات السياق الاجتماعي على ساحة المعاني (مقاربة في ضوء اللسانيات الاجتماعية) ، مجلة الأستاذ ، العدد الخاص بالمؤتمر العلمي السادس ، 2018، ص130.

[15] ينظر: علي آيت أوشان، السياق والنص، ص 82.

[16] ينظر: المرجع نفسه، ص83.

[17] المرجع نفسه، ص86.

[18] المرجع نفسه، ص86.

[19] المرجع السابق، ص88.

[20] فاطمة الشيدي ، المعنى خارج النص ، أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب ، دار نينوى ، 2011 ، بيروت ، ص47.

[21] المرجع السابق، ص 189-190.

[22] محمد بن جبار ، رواية الحركي ، دار ميم ، طبعة2 ،2022م، ص 07.

[23] ينظر عبدالملك مرتاض ، دليل مصطلحات الثورة الجزائرية ، 1954-1962م ، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحوث ، ص 43.

[24] الرواية ص 08.

[25] الرواية ص09.

[26] فان دايك ، النص و السياق ، ص258.

[27] علية بيبية ، السياق و التحليل النصي ، ص659.

[28] عبد الهادي حسين، لاصاص بين تأطير السكان المحليين و إفشال الثورة التحريرية (1954-1962) ، مجلة المعارف للبحوث الدراسات التاريخية ، العدد 12، ص 144.

[29] المرجع السابق، ص 147.

[30] الرواية ص 76.

[31] الرواية ص 18.

[32] الرواية ص67.

[33] الرواية ص74

[34] الرواية ص 09.

[35] الرواية ص 09.

[36] الرواية ص 10.

[37] الرواية ص 12.

[38] الرواية ص10.

[39] الرواية ص 10

[40] الرواية ص55-56

[41] الرواية ص144-145

[42] الرواية ص 132

[43] الرواية ص123-124

[44] الرواية ص123-124

[45] أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص73

[46] الرواية ص 48

[47] الرواية ص49.

[48] الرواية ص62-63 .

[49] الرواية ص63.

[50] الرواية ص81.

[51] الرواية ص169 .

[52] المعنى خارج النص السياق وأثره في المعنى ص 114

[53] المرجع نفسه ص112

[54] المرجع نفسه ص114

[55] المعنى خارج النص السياق و أثره في المعنى ص 112.

[56] الرواية ص124

[57] الرواية ص125

[58] الرواية ص133

[59] الرواية ص125

[60] الرواية ص162

[61] الرواية ص147

[62] الرواية ص 148

[63] الرواية ص151

[64] الرواية ص161

[65] الرواية ص157

[66] الرواية ص173

[67] الرواية ص 07

[68] الرواية ص 10

[69] الرواية ص 10

[70] الرواية ص163